

## التحول الوطني لا يُقاس بالأرقام فقط... بل بتغيير السلوك

مشاري الرحيلي



لم تعد مسيرة التحول الوطني في المملكة العربية السعودية محصورة في قراءة المؤشرات الاقتصادية أو تتبع أرقام النمو والاستثمار، على أهميتها ودلالاتها، بل تجاوزت ذلك إلى مستوى أعمق وأكثر استدامة يتمثل في التحول السلوكي للمجتمع، بوصفه الركيزة الحقيقية لأي تنمية طويلة الأمد.

لقد جاءت رؤية المملكة 2030 بوصفها مشروعاً وطنياً شاملاً لإعادة تشكيل العلاقة بين الإنسان والتنمية، حيث لم تستهدف تحسين الاقتصاد فحسب، بل سعت إلى بناء إنسان فاعل، واعٍ، ومسؤول، يدرك دوره في مسيرة الوطن، ويترجم السياسات العامة إلى سلوك يومي في العمل والاستهلاك والانتماء.

وفي هذا السياق، يبرز التحول السلوكي كأحد أهم مؤشرات النجاح غير المرئية، لكنه الأكثر تأثيراً. فحين يلتزم الموظف بالإنتاجية والانضباط لا خوفاً من الرقابة بل فناعة بالمسؤولية، وحين يتغير نمط الاستهلاك من الإسراف إلى الترشيد، وحين يتحول الحفاظ على الممتلكات العامة من واجب قانوني إلى قيمة أخلاقية، فإننا نكون أمام تحول حقيقي يتجاوز لغة الأرقام.

إن الاقتصاد القوي لا يُبنى بالقرارات وحدها، بل بسلوكيات تدعم تلك القرارات. فرفع كفاءة الإنفاق، وتمكين القطاع الخاص، وتوطين الوظائف، لا تؤدي ثمارها الكاملة ما لم يصاحبها وعي مجتمعي يقدر العمل، ويحترم الوقت، ويؤمن بأن النجاح الفردي جزء لا يتجزأ من النجاح الوطني.

وقد أكدت تقارير التنمية الدولية هذا المعنى بوضوح، إذ يشير برنامج الأمم المتحدة الإنمائي إلى أن «التنمية المستدامة تبدأ حين تتغير طريقة تفكير الإنسان قبل أن تتغير السياسات»، وهي مقولة تختصر جوهر ما تسعى إليه رؤية المملكة 2030: تغيير الذهنية قبل تغيير الهياكل.

وتتجلى ملامح هذا التحول في تفاصيل الحياة اليومية؛ في ارتفاع ثقافة التطوع، وفي الإقبال على المبادرات المجتمعية، وفي تغير نظرة الشباب إلى العمل المهني وريادة الأعمال، وفي تعاضم الشعور بالمسؤولية تجاه البيئة والموارد الوطنية. وهي مؤشرات لا تُقاس مباشرة في التقارير الاقتصادية، لكنها تُلمس في السلوك العام وفي جودة الحياة.

إن الاحتماء بالمنجز حق مشروع، غير أن الأهم هو فهم أثره العميق والممتد. فالمشروعات الكبرى، والبرامج الوطنية، والإصلاحات التشريعية، تمثل وسائل، بينما الغاية النهائية هي بناء مجتمع حيوي يتفاعل إيجاباً مع التحول، ويحمي مكتسباته، ويطورها عبر الأجيال.

ومن هنا، فإن قياس نجاح التحول الوطني لا يكتمل دون النظر إلى الإنسان ذاته: كيف يعمل، كيف يستهلك، كيف يشارك، وكيف ينتمي. فحين يصبح السلوك الإيجابي ثقافة عامة، تتحول الرؤية من وثيقة استراتيجية إلى واقع راسخ، وتصبح التنمية مساراً ذاتياً لا يتوقف بتغيير الظروف.

إن التحول الحقيقي هو ذلك الذي لا يحتاج إلى تذكير دائم، لأنه أصبح جزءاً من الوعي الجمعي، وجزءاً من هوية وطن يمضي بثقة نحو مستقبله.